غياب جوزف سماحة

مات كما عاش: طليق اليدين، حرّاً

أسعد أبو خليل

لم يكن رجلاً عادياً. لم يكن صحافياً عادياً. جوزف سماحة: كان نوعاً آخر من الصحافيين، في لبنان وفي العالم. مع جوزف سماحة، كنتَ تشعر بأنّ الصحافة شكل من أشكال النضال، في وطن (هذا إذا جازت تسمية لبنان بالوطن) تحولت فيه الصحافة إلى نوع من أنواع الارتزاق والارتهان. كم واحداً مِن رؤساء التحرير العرب يستطيع أن يقول إنّه لم ينحن يوماً لأمراء النفط؟ كم من صحافيي وصحافيات لبنان، لم يضعف أمام مال الحريري؟ كم مِن صحافيي العالم العربي لم يغيّر قناعاته إرضاءً لمصدر تمويل؟ اسم جوزف يرد دائماً على رأس قائمة قصيرة جدّاً، لدى الإجابة عن كل هذه الأسئلة.

سياسياً، لم يكن جوزف عادياً. اختطّ لنفسه خطاً سياسياً مميزاً. كان بعضهم يقول، وخصوصاً بعد اغتيال الحريري، إنّه سياسياً مع جوزف سماحة. خلط بين ماركسية ليبرالية فرنسية وقومية عربية ناصرية منفتحة. لم يقع في مزالق طائفية، ولم يتحول كغيره من جيله من الصحافيين اليساريين (سابقاً) العلمانيين (سابقاً) إلى مبشّر ديني أو طائفي، أو إلى يميني يدعو إلى الاقتداء بدعاة الرأسمالية المتوحشة. لم ينس موضوع العدالة الاجتماعية: وهو موضوع لا يحظى باهتمام فريق السلطة الذي يروّج لمشاريع البنك الدولي تحت عنوان «الإصلاح»، ولا حتى باهتمام جدي وعملي من جانب المعارضة التي يرفع بعض فرقائها شعار مصالح الطبقات الشعبية للمساومة السياسية.

كان جوزف فريداً. تنظر إلى صف طويل من رعيل الصحافة اللبنانية من جيل جوزف (ومن أصدقائه الخلص) تعدّهم واحداً واحداً: هذا تحول إلى بوق دعائي لعائلة حاكمة مستجدة، آخر يبشّر بعقيدة بوش من دون خجل، آخر يكتب ابتهالات دينية، وآخر «يحاضر» أمام رديف اللوبي الصهيوني في واشنطن داعياً فيه العرب (من واشنطن) إلى «تشرّب» فكر بوش «الديموقراطي»، وآخر ينتقد القمع في سوريا، ويغض الطرف عن القمع في باقي الدول العربية المتحالفة مع الولايات المتحدة. وحده بقي. لعل هذا يفسّر صداقاته مع من يختلف معهم في الرأي. ماذا عساه يفعل؟ هل يبقى وحيداً؟ وحيداً في لغته الخشبية. كم كان مثيراً للسخرية أن ينتقد من احترف اللغة الخشبية (في صيغتها القومجية وفي صيغتها الأميركية) جوزف سماحة. ماذا يمكن أن تقول عن جوزف سماحة غير أنه كان مبدئياً. أنه كان نظيفاً. أنه لم ينحن. بقي فوق الطوائف والمذاهب. لم ينتم إلى طائفة، ولم يحتم بطائفة.

تحول هذا الفريد بعد اغتيال رفيق الحريري إلى مؤسِّس لخط سياسي مستقل. أصبح له أتباع: ينتظرون إشاراته ليحددوا مواقفهم (ومواقفهن). كم رجوته أن نجمع مقالاته في تلك الفترة في كتاب. رفض بإصرار. لم يتحول إلى نجم تلفزيوني مثل عدد من زملائه. لا يحب الظهور التلفزيوني. قال لي مرة إنّ في الظهور التلفزيوني نرجسية لم يرتح لها. سألته بعد أشهر من اغتيال الحريري إذا تعرض لضغوط أو لإشارات. قال إنّ له في «السفير» مطلق الحرية للتعبير عن آرائه. سألته إذا ما كان يُخضع نفسه لمراقبة ذاتية. أجاب بالإيجاب. طلبت مثالاً. «وليد جنبلاط، مثلاً». أخبرني أنّه قرّر أن يتجنب التعرض لوليد جنبلاط بالمطلق نظراً لتاريخه (وحاضره) «غير الديموقراطي».

كان جوزف بسيطاً في شخصه، ومعقداً في فكره. كان يكتب بطريقة فريدة أخّاذة. كان يفكّر ويحلّل بصورة مميزة لا تُقلد. تركيب جمله كان معقداً لأنه كان يغوص في التحليل، يذهب إلى أبعد من الظاهر. كان يذكرني أحياناً بميشال فوكو: لنفوره من المباشرة. وكان جريئاً في فكره وخياراته: ترك أكثر من موقع صحافي ليخوض غمار مغامرة جديدة. كان يعلّم بالمثال والنموذج، لا بالوعظ والإرشاد على طريقة بعض أساطين الصحافة في لبنان. وضع صورة عبد الناصر في مكتبه في زمن تحولت فيه القومية العربية (فقط القومية العربية) إلى سبة عند «حضاريي» ثورة الأرز. دعم المقاومة ضد إسرائيل في زمن كرّر فيه يساريو وتقدميو الماضي غير السحيق مقولات شارل مالك الركيكة عن «محاكاة حضارية» بين لبنان وإسرائيل. بقي جوزف علمانياً في زمن يجاهر فيه الجميع بطائفيتهم ومذهبياتهم. ويجب ألا ننسى أنّ جوزف لم ينس فلسطين. فلسطين وقضية فلسطين لم تكن عنده موجة، كما كانت عند غيره، أو «فوشة كبد». فلسطين كانت القلق والهاجس حتى في وطن يجاهر بعنصريته ضد شعب فلسطين. جوزف سماحة لم يتوقف عن التعلّم ولم تضعف حشريته العلمية في زمن يتصوّر فيه بعضهم أنّ ذروة العلم تكمن في حفظ خطب هذا الزعيم أو ذاك. جوزف سماحة لم يخجل من أنّه لم يقبض «الكيانية اللبنانية» يوماً واحداً على محمل الجد. كان أفق جوزف قومياً وأممياً من دون التباس.

ماذا تَفعل من دون جوزف. من تَقرأ؟ ضاعت البوصلة. كان يمعن تفكيراً وتحليلاً موفّراً علينا عناءً وجهداً. لم يكن زعيم قبيلة أو عشيرة أو طائفة. لعل الوطن الغارق في أوحال الطائفية والمذهبية ضاق به. لعل عصر بوش كان فوق ما كان بمقدور قلبه أن يتحمّل. عبثاً تحاول إذا فتشت عن مقلد أو عن بديل. لا بديل له أو منه. إنه صنيع وحده. مات جوزف سماحة كما عاش: طليق اليدين، حراً.

العابرون سريعاً جميلون

حسن المصطفى

للغياب سطوته. سطوة تحيله حضوراً يجنح للذهاب عميقاً في داخلك. غياب يجعل ذلك «العابر» سريعاً، مقيماً دائماً، ومفردة أساساً من تكوين روحك لم تشعر بها إلا ساعة ابتعدت عنك.

«العابرون سريعاً جميلونٍ»، يقول وديع سعادة، مستفيضاً «الأكثرِ جمالاً بيننا المتخلي عن حِضوره. التارك فسحة نظيفة بشغور مقعده. جمالاً في الهواء بغياب صوته. صفاءً فيِ التراب بمساحته غير المزروعة. الأكثر جمالاً بيننا: الغائب».

سعادة وصف الجمال الأبهى عند اكتمال البدر في زرقة السماء، إلا أنه لم يحكِ لنا عن كُحل الألم الذي يرتسم في عين الفاقد. الكحل الأسود المزدانة به عيون النسوة النادبات.

هو في سديم الأبد، وأنا هنا في القطيف، شرقي السعودية، أعدّ حقائبي للعودة إلى بيروت، وأمنّي نفسي بلقاء قريب معه كنّا اتفقنا عليه في آخر فنجان قهوة احتسيناه معاً.

أحاديث طويلة كانت ترافقنا طوال الفترة السالفة. تبدأ بـ «الأخبار» الجريدة، وتعبر الموالاة والمعارضة، وتصل إلى العراق والخليج والسعودية، وحرب تموز وتداعياتها على التجاذبات المذهبية في الخليج، وتنامي الأصولية التكفيرية.. نختلف، ونتفق، ننتقد، ونمتدح، ويظل خيط الكلام غير مكتمل بانتظار اتصاله من جديد.

في كلّ مرة كان يطلب مني جوزف أن أكتب مادة عن السعودية، والوضع السياسي والاجتماعي والثقافي هناك. وأنا أعدهُ خيراً. تمرّ الأيام ونلتقي ويكرّرِ طلبه، وأنا أعده خيراً. كنت أهب لنفسي فسحة من الوقت، وأسليها بأنّ عذري معي، بسبب انهماكي ومجموعة من الأصدقاء في الإعداد لمشروع صحافي جديد، أطلعت جوزف لاحقاً على تفاصيله. حينها، وجد لي من العذر القليل، وقدم لي من المساعدة لإنجاح المشروع الكثير.

فسحة الأمل، والوقت الذي حسبته رحباً، لم أخلّه يباغتني فجأة. كنت خائفاً على جوزف من عبوة عمياء. من مأجور طائش، من سياسي يحرّض ضده، وما أكثر المبغضين، لكن أن يضعف قلبه، ويفلت منه نفسه، ويستعذب إغفاءة المحارب، فساعةٌ لم تكن على بال أحد.

أسترجع افتتاحية جوزف في عدد «الأخبار» الأول، حينما أكد على حرية الصحيفة وحداثتها وتعدديتها، وانفتاحها على الجميع بدون استثناء.

افتتاحية هي اليوم أشبه بالوصية والمنهاج الذي على الجميع أن يحرص عليه، لنكون أوفياء لحرية وحداثة طالما دافع عنهما وأكد عليهما، ودون ذلك، سيكون لنا من جرم الاغتيال القلبي نصيب وافر، بل النصيب كله.

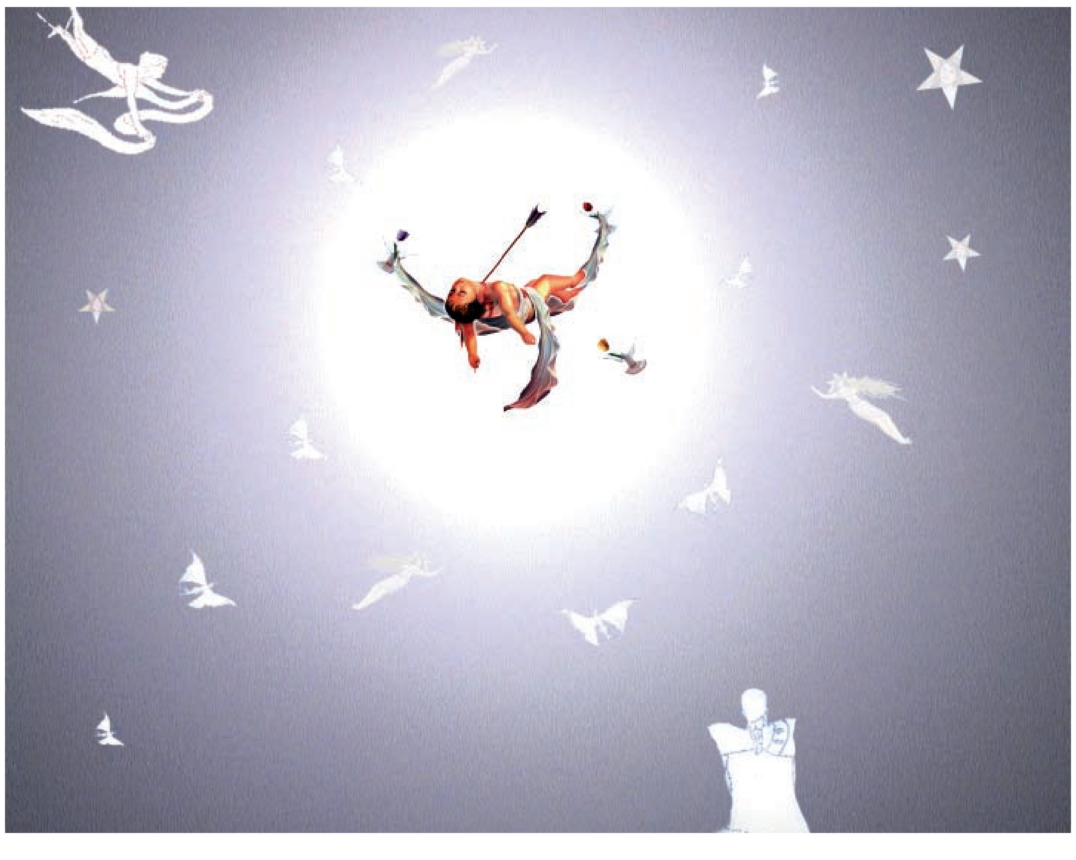

لارا بلدي، "الملاك المطعون"

سلّم على سمير، رفيقك

إيف غونزاليس

كان سمير قصير صديقي... وجوزف سماحة أيضاً. الجمع بين الاسمين يبدو صعباً للغاية في لبنان اليوم، بل يبدو من المفارقة ذكر اسم سمير في مثل هذه الظروف، هو الذي اختار مساراً نقيضاً لتوجّه جوزف، خاصة في المرحلة الأخيرة من حياته. إلا أنّ الأمر لم يكن كذلك دائماً، ولا أزال أعتقد أنّنا على حق عندما ننظر إليهما كصديقين ـ بل رفيقين إذا أمكننا استخدام هذه الكلمة التي صار بعضهم يراها شتيمة. لماذا ذلك؟ ألأنهما كانا يكتبان أفضل ما يمكن طبعه في الصحافة السياسية العربية؟ أم لأنهما كانا يحظيان لدى فئة من الشباب اللبناني (ولا أقول "فئتين") بالقدر نفسه من الاحترام والإعجاب؟

فاجأني خبر اختفاء جوزف، بعد ساعات من نقاش حاد ومؤلم جمعني بصديق قديم وعزيز، حول مواقف جوزف الأخيرة... وما كان يؤديه من خلال كتابته في جريدة "الأخبار".

أعرفه هذا الصديق، أعرفه جيداً وأعرف كم كان صديقاً لسمير... أعرفه جيداً وأعرف أنه، رغم قسوة ما قاله ذلك اليوم، يشاركنا الآن وجعنا وألمنا لاختفاء جوزف المفاجئ. وداعاً يا جوزف، وداعاً يا مي... سلّما على سمير ولا تنسيانا. نفتقدكم جميعاً... كثيراً.

مثقّف عضوي بامتياز

سركيس أبو زيد

عالم جوزف سماحة هو عالم الثقافة الملتزمة بقضية تساوي وجوده، فيعطيها كل ما عنده بعيداً من التفاصيل والجزئيات والحرتقات الصغيرة. هو صحافي مسكون بالفكرة والاستراتيجية والمصير، لم يخلط يوماً بين الالتزام المهني ومغانم المواقع. هاجس جوزف سماحة هو الحقيقة والمعرفة، أما المظاهر وبهرجة الحياة فلم تكن يوماً في مفكرته اليومية. فهو مثقف عضوي بامتياز، دافع عن فكرته بالقلم والكلمة ونمط الحياة، فاحترف النحت بالكتابة وترهب لقناعاته مختاراً.

جوزف سماحة ركب فرس الثقافة والنضال، لكنه سقط عن صهوتها فارساً، في الموقع والمكان والزمان الخطأ، هو لم يسعَ لذلك أبداً. قدر المناضل دائماً أن يقول كلمته ويمشي، قدره أن يغيب، وأن تبقى كلماته محفورة على صدر التاريخ.

جوزف سماحة، مثقف متواضع، لأنه أدرك أن المعرفة أبقى من المناصب والمهرجانات والمظاهر الفانية.

جوزف سماحة اسم جديد للمثقف المتواضع، في زمن تحول فيه الصحافي الى مستشار في البلاط، والكاتب الى "بياع كلام". جوزف سماحة اختار الانسجام مع نفسه وفكره وقناعاته، فانحاز الى الرأي الجريء على حساب المظاهر، وإلى الكلمة على حساب الصورة البراقة.

قيل: الاستغناء غنى، وهو كذلك، جوزف سماحة غني لأنه أتقن فن الاستغناء عن مكاسب المناصب وأضواء المسرح وزهو كراسي الحكم. في زمن انتشار الانتهازية والوصولية السهلة، شق جوزف سماحة طريقه الصعبة في معارضة الشواذ والانحراف والاستبداد والاستسلام. ورغم مواقفه الحادة والصريحة، عرف جوزف كيف يحافظ على صداقاته وعلاقاته الحميمة مع رفاقه وزملائه الذين اختلفوا معه في الموقف والموقع. فالاختلاف في الرأي لديه لم يفسد للود قضية.

جوزف سماحة، لم تكن مجرد صحافي يكتب، كنت خطاً ونهجاً.

رحلت أنت، وبقيت من رواد الكلمة الحرة وفرسان الصحافة... والقدوة.

في غيابك أيها الكبير، نفتقد وقعك الصامت، وبصمت نتذكرك.

أنّى له أن يرحل؟

هالة نهرا

رأيته للمرّة الأولى في كنف صحيفة "السفير"... بُعيْد ملازمته العتيدة مقدمة الواجهة الاستثنائية لقراءاتي السياسية اليومية، بل شبه اختصاره إيّاها في لفيف مضمونه التحليليّ، قبل أن أراه.

لامستُ قامته الحاضرة في ركن الزاوية الحميمة الخاصة بمكتب الصديق المشترك حلمي موسى؛ حين تجاوز جوز\ف سماحة هامش الزمن الضيّق الذي طالما أسره، ومسافة الجدار القدريّ في ارتياده أُسس الهيكل المربّع أو المستطيل، حيث كان ينزوي أمام صدقية قلقه الوجودي وتجاعيد اليوم المنصرم.

أنّى له أن يرحل، دونما البوح أو الإنذار، في صميم خاصية الوضع اللّبناني والإقليمي الراهن، في ظلّ حاجة المثقّف الحالية الملحّة إلى المثابرة على ارتشاف واقع اللّحظة من خلالٍ عموده التخصصي المنطوي على شهادة تاريخية قد تصابت خلسةً، لتُجاريَ مقتضيات الظرف والصعاب المتوالية.

هل من سبيل لتخطّي تلك المكانة الرمزية الشاغرة في ذاكرة الذاكرة ... أمام فراغ الكأس الذي خلّفه فجر البارحة على طاولة البحث، قبل أن يغادر في عري الصمت المخيف، وغربة حلول نُظم الجديد السائد الموغل في القِدم؟

جوزف... لا يسعني اليوم إلاّ أن أعيد قراءتكَ واستقراء مسوّداتك مع كلّ قهوة صباحية.